الأمير

عبد القادر الجزائري

العالم المجاهد

جمع وتحقيق

نزار أباظة

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الكتاب ٩٥٣
الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ = ١٩٩٤ م

سورية - **دمشق** - برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد - ص.ب (٩٦٢)
برقياً: فكر - س.ت ٢٧٥٤ هاتف ٢٣٩٧١٧، ٢١١١١٦٦ - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري: دار الفكر بدمشق
الطباعة (أوفست): المطبعة العلمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير
عبد القادر الجزائري
العالم المجاهد

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ما من مؤرخ تحدث عن الجزائر في عصورها الحديثة إلا وأشاد بالأمير المجاهد عبد القادر الجزائري ونوّه بفضله ومكانته حتى غدا هذا الأمير معلماً من معالم المغرب العربي الحر بما له من مآثر بطولية ملحمية سجلها التاريخ بحروف من نور . وما من مؤرخ كذلك درس تاريخ الشام المعاصر إلا وأشار إلى هذا الأمير العالم لما ترك من آثار واضحة في حياة دمشق وما حولها من جميع مناحيها السياسية والعلمية والاجتماعية وخلال المرحلة الطويلة التي عاشها هذا العلم في بلاد الشام .

كان الأمير عبد القادر شخصية عظيمة امتازت بصفات متعددة وفي جوانب مختلفة لفتت إليها الأنظار واستقطبت من حولها الرجال فملأت الدنيا وشغلت الناس .

لم يعرف الأمير مجاهداً وسياسياً فحسب ، ولم يبرز للناس عالماً أو زعيماً أو مصلحاً أو قائداً أو صوفياً فقط بل كان يجمع ذلك كله في نفسه الشمّاء ، فقد بدأ حياته في بيت علم وصلاح وفضل فنشأ نشأة دينية ترتكز على الأخذ بأسباب العلم المشفوع بالعمل . وحينما تعرضت الجزائر لمحنة الاحتلال وقامت الثورات ترفض العبودية ، وجدت أسرته أن لا بد من المشاركة في دفع العدوان والقيام بواجب الجهاد ، فأعلن أبوه العالم الصالح عندئذ قيامه بالثورة ، وبايعه أهل منطقته أميراً إلا أن الوالد ما لبث أن إعتزل الإمارة فتركها لابنه الأمير الشاب فبايعه الناس بيعة عامة .

وإذ وجد الأمير نفسه في موقع المسؤولية فقد اضطلع بأعبائها وقام بها خير قيام ، فأسس دولته على قواعد العدل والنظام وأنشأها على التنظيم الحديث المدروس كما يجب أن تكون الدول ، وضع لها دستوراً كأحسن الدساتير ، وضرب النقود باسمها ، وافتتح معامل الأسلحة والألبسة وعين رجال الدولة ومجالس الحكم وعبأ جيشه التعبئة المثالية وبذا غدت مدينة معسكر عاصمة حكمه وأصبحت إحدى العواصم المعروفة المنظور إليها .

وحينئذ هابه الفرنسيون وحسبوا له حساباً واضطروا أن يعقدوا معه معاهدة أقروا له بموجبها بالسلطة على معظم مقاطعة وهران ، واعترفوا له فيها بدولته الفتية التي مارست أعمالها كالدول الأخرى وكان لها قناصلها .

ولكنّ غدر الفرنسيين وتألب بعض القبائل على الأمير المجاهد لم يتركا له فرصة للراحة البتة واضطر سريعاً إلى خوض عدد من المعارك المظفرة فأقلق العدو وحشد له الجيوش حتى اضطروه إلى التسليم بالشروط التي وضعها . بيد أنهم غدروا به فساقوه سجيناً إلى فرنسا حيث بقي مدة قبل أن يصدر قرار نابليون الثالث بالعفو عنه فسافر إلى بروسة والقسطنطينية ثم قرر سكنى دمشق .

وفي دمشق بزغ نجم الأمير منذ دخلها واستقبله أهلها كباراً وصغاراً وأحبه العلماء والصلحاء والصوفيون فالتفوا حوله وكانت مجالسه عامرة بالعلم والذكر والمناظرات . وأحب المدينة المباركة هو بدوره فأقبل على أهلها وأصفاهم الودّ وواساهم في محنهم دون تفريق بين طبقة من الطبقات وكانت أبرز مواقفه العظيمة في فتنة عام ١٨٦٠ م المشهورة وظهر فيها بطلاً جريئاً ورجلاً عاقلاً .

وقبل أن يسكن الأمير دمشق بعد جهاده الميمون كانت له فيها ذكريات حينما ألمّ بها يوم سافر للحج مع والده فالتقى فيها بشيخ النقشبندية ، الشيخ خالد النقشبندي المجددي فأخذ عنه الطريقة . ويبدو أن ذلك اللقاء كان ذا مغزى عظيم فهذا الأمير

صوفي عريق في التصوف ولعل التصوف كانت السمة البارزة التي عاش بها ومات عليها فيمكن أن ننزله في طبقات الصوفية مثلما أنزلناه في صفوف المجاهدين .

ولاهتمام الأمير بالتصوف أرسل عالمين كبيرين (محمد الطيب ومحمد الطنطاوي) فتجشما رحلة طويلة إلى قونية ليقابلا نسخته من كتاب الفتوحات المكية بنسخة مؤلفه الموجودة هناك فلما رجعا تولى الأمير إقراء الكتاب وحضر القراءة جمع من علماء دمشق البارزين ممن كانوا لا يبرحون حلقته .

ولقد تمكنت قدم الأمير من علم التصوف فغدا أحد أعلامه في القرن الثالث عشر وله فيه مشرب ومنهج انتهى به إلى تأليف كتابه المشهور (المواقف) الذي ينبئ عن إحاطة شاملة في علوم كثيرة إلى جانب المنهج الصوفي .

وإذا طالعنا قصائده أنبأتنا عن شاعر ذي نفس شعري لطيف وحساسية شعرية فياضة يمتح عنها شعره بنسيج محكم البنيان .

كان الأمير عبد القادر إذن شخصية عظيمة ولا شك أعجب به الكثيرون وقد أشرنا إلى اهتمام الدمشقيين به كل الاهتمام ونضيف هنا إلى أنهم رأوا فيه شخصية قيادية محبوبة تستطيع حكم البلاد بالعدل والحق فأرادوا مبايعته حاكماً عليهم دون الدولة العثمانية بعد فتنة الستين إلا أن الأمور لم تتم .

وطار صيت الأمير في أرجاء الدنيا فاحترمه الفرنسيون احتراماً جاوز مستوى الرسميات إلى طبقات الشعب وأعجب به السياسيون والأمراء وذوي النفوذ في كل البلاد وقدّره السلطان العثماني حق قدره ودعاه الخديوي إسماعيل لحضور افتتاح قناة السويس مع كبار الشخصيات العالمية من السلاطين والأباطرة والملوك . وكان أينما حلّ في العواصم أو البلدان احتفى الناس به ودعوه ومشوا في ركابه .

وبعد :

فهذه نبذة عن حياة الأمير المجاهد العالم الصوفي الشاعر السياسي أقدمها للقراء مختصرة وقد سبق كثيرون في الكتابة عن الأمير بأكثر من لغة وفصلوا الحديث عنه كما أشرت إلى المراجع التي اعتمدت عليها يمكن لمن أراد الاستزادة الرجوع إليها وبحسبي أنّ ما أقدمه يعد اختصاراً شاملاً أتيت فيه على الجوانب الأساسية في حياة الأمير .

أسأل الله أن ينفعني ويسدد خطاي إنه ولي التوفيق .

الأمير عبد القادر الجزائري[1]

١٢٢٢ ـ ١٣٠٠ هـ

١٨٠٧ ـ ١٨٨٢ م

الأمير المجاهد الصوفي الأديب.

عبد القادر بن محيي الدين بن المصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر ابن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خدّه وهي مرضعته ابن محمد ابن عبدالقوي، بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط رضي الله عنهم[2].

وأصل أسرته من المغرب الأقصى، هاجرت من هناك إلى نواحي وهران، واشتهر رجال منها بالورع وكانوا قدوة للناس.

ولد الأمير عبد القادر يوم الجمعة ٢٣ رجب سنة ١٢٢٢ هـ ببلدة القَيْطنة من أعمال (معسكر) بالمغرب الأوسط في بيت علم وتقوى، وتربى في رعاية والده وحفظ القرآن الكريم في مدرسته، وقرأ عليه الفقه وغيره، وأخذ العلم على أهله.

---

(١) الروض البسام ٣٩، إيضاح المكنون للبغدادي ١/٣٢٦، ٢/٥٤٥، هدية العارفين ١/٥٠٦، تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٤/٢١٦ ـ ٢١٧، مشاهير الشرق لزيدان ١/١٥١ ـ ١٥٩، جامع كرامات الأولياء ٢/٩٩ ـ ١٠١، أخبار مكناس لابن زيدان ٥/٥٠ ـ ٧٤، الحدائق الوردية ٢٨١، ديوان الهلالي ١٦ ـ ٢١، ٤١ ـ ٤٣، ٥٣ ـ ٥٥، ٦٩ ـ ٧٠، ١٩٦ ـ ١٩٩، حلية البشر ٢/٨٨٣، تعطير المشام، ج ٢ (خ)، منتخبات التواريخ ٧٤٠، تحفة الزائر، معجم المطبوعات لسركيس ٦٩١ ـ ٦٩٣، دائرة المعارف للبستاني ١١/٦١٦ ـ ٦٢١، أعيان البيان للسندوبي ١٧١ ـ ١٩٠، الآداب العربية لشيخو ٢/٨٣ ـ ٨٤، فهرس دار الكتب المصرية ٧/٢٣٧، ٨/١٤١، فهرس مخطوطات الظاهرية (الشعر) ١٨٣، ٣٥٠، أعلام الأدب والفن ١/٢١٩، الأعلام ٤/٤٥، معالم وأعلام ١/٢٤٢، أعلام الإسلام لمحمد سعيد الطنطاوي ٥٧، مصادر الدراسة الأدبية ٣/٢٥٨، معجم المؤلفين ٥/٣٠٤، أعيان دمشق ١٧٦ ـ ١٨١، فهرس مخطوطات الظاهرية (التصوف) ١/١٠، ٢/٩٣، ١١٠، ٤٤٣، ٨١٣، (المجاميع) ١/١٤٣، مجلة مجمع اللغة العربية ٦٠/٤٥١، الأمير عبد القادر، للعماد مصطفى طلاس، أعلام الإسلام، لعبد الوهاب سكر ٤٦، التصوف والأمير عبد القادر، لجواد مرابط.

(٢) اعتمدنا في هذا النسب على كتاب (حلية البشر ٢/٨٨٤) وكتاب (الروض البسام ٣٩ ـ ٤٠)، وكتاب (تحفة الزائر ٩٢٣) وفيه قصيدة للشيخ محمود حمزة نظم فيها النسب مطلعها:

يا حبذا الوعد والإنجاز يصحبه ... حاشا علاكم بأنّ الخلف يعقبه

سافر سنة ١٢٣٦ هـ إلى وهران وحصّل منها، وأكمل دراسته وبرع في مختلف العلوم حتى فاق أقرانه بالأدب والتوحيد والفقه والحكمة العقلية. وكان يحفظ أكثر صحيح البخاري. كما كان له ولع بالفروسية والسلاح لا يهملهما، فصار عالماً فاضلاً، وفارساً مدرباً، وجمع بين السيف والقلم.

وفي سنة ١٢٤١ هـ قصد مكة المكرمة مع والده فمشيا براً إلى تونس أولاً ثم ركبا البحر إلى الإسكندرية، فالسويس فجدة وبعد أداء فريضة الحج توجها إلى دمشق وبقيا فيها مدة، فأخذ هو الطريقة النقشبندية على الشيخ خالد النقشبندي، ومنها رحل إلى بغداد فأخذ الطريقة القادرية على الشيخ محمود الكيلاني، ثم رجع إلى دمشق، ومنها ارتحل إلى مكة المكرمة مع والده فأديا فريضة الحج مرة أخرى، ورجعا عن طريق البر إلى بلدهما سنة ١٢٤٣ هـ.

وفي سنة ١٢٤٦ هـ/١٨٣٠ م حينما بدأ الفرنسيون باحتلال الجزائر، واضطر حسن بك حاكم وهران التركي لتسليم البلدة، دارت رحى القتال بين الحامية الفرنسية والأهالي، وتولى قيادتهم حينئذ والده السيد محيي الدين وقام معه بأمر الجهاد فقاتل سنتين، أظهر خلالهما بسالة وإقداماً، ورباطة جأش، وأصالة رأي، مما جمع له محبة الناس.

بايع والده أهل (القيطنة) أميراً عليهم لمكانته العلمية وصلاحه وشجاعته، ثم اعتزل الإمارة واختاره عوضاً عنه فتقدم إليه مبايعاً معتذراً بتقدم سنه، ثم بايعه مجلس علماء مدينة معسكر في ٣ رجب ١٢٤٨ هـ/٢١ تشرين الثاني ١٨٣٢ م، ثم بايعه الناس بيعة عامة في ١٣ رمضان من السنة نفسها ٤ شباط ١٨٣٣ م، وكان ممن بايع القبائل الشرقية والأحياء الغربية. ولقبه والده بأمير المؤمنين ناصر الدين، وقيل إنه بويع بالسلطنة، فلم يرض بلقبها مراعاة لسلطان فاس، واكتفى بلقب الإمارة. ثم أجمعت الجهات الغربية والجنوبية على إمارته وبيعته.

أقام الأمير عبد القادر الإمارة على الفضل والعدل والنظام، وباشر الأعمال، وركب الأخطار، وضرب النقود من الفضة والنحاس، وأنشأ معامل الأسلحة واللباس، وجعل مدينة (معسكر) حاضرة إمارته. ووضع للدولة الفتية دستوراً تضمن مجموعة القوانين التي نظمت الدولة(١).

---

(١) طبعه في دمشق حفيده باسم وشاح الكتائب وزينة الجيش الغالب.

عبأ الأمير جيوشه بشكل منظم، وعيّن رجال الدولة، وعيّن وزيراً (محمد العريني) وكاتباً (ابن عمه أحمد بن علي)، ورتب مجلساً للشورى من أحد عشر عضواً، ورئيسهم قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي.

ولما رأت فرنسا ذلك وقيامه بأمر الدين والجهاد والوطن هابته وحسبت له حساباً.

وفي ٢٥ رمضان سنة ١٢٤٩هـ/٢٦ شباط ١٨٣٤ م عقد مع فرنسا معاهدة دي ميشيل اعترفت له فيها بمقاطعة وهران ما عدا مدينة وهران ومستغانم والجزائر، وأن يستورد السلاح من أي جهة أراد، وأن يعين معتمدين (قناصل) في وهران والجزائر ومستغانم وغيرها. فعظم شأنه وقوي سلطانه وأصبح أمير الجزائر الشرعي.

تفرغ بعد ذلك لمقاومة الخارجين عليه، فقضى على فتنة ابن تونة في تلمسان، وامتد سلطانه على بعض البلاد المجاورة التي لم تكن داخلة ضمن حدوده وقت المعاهدة مثل ميدية وملدانة، ورتب فيها المسالح بالرغم من احتجاج حاكم الجزائر العام.

ثم ما لبثت المعاهدة أن نقضت حين انضمت إلى الحاكم الفرنسي قبيلتان جزائريتان هما الدوائر والزمالة، فطلب الأمير منه تسليم رؤسائهما إليه حسب شروط المعاهدة، فأبى الحاكم الجنرال تريزل، فأعلن الأمير القتال من جديد وانتصر على الفرنسيين في معركة المقطع ٢٦ تموز ١٨٣٥ م.

وفي ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٥٢ هـ جردت فرنسا جيشاً عظيماً بقيادة الماريشال كلوزل، فاستولت على مدينة معسكر عاصمته، ولاقى الأمير مقاومة من الفرنسيين أمامه ومن الأتراك خلفه في قلعة تلمسان، لكنه بقي ثابتاً موفور القوة حتى اضطرت فرنسا إلى مصالحته من جديدة في معاهدة التفنة ٣٠ أيار١٨٣٧ م،اعترفت له بموجبها بجميع مقاطعة وهران وقسم كبير من مقاطعة الجزائر.

شرع الأمير بعد ذلك بتوجيه سلطته على تلك البلاد التي دخلت حديثاً تحت سلطانه وكانت الأطراف جميعاً راضية به ما عدا المرابط محمد التجاني الذي أبى الاعتراف بإمارته عليه فتقدم إليه الأمير بجيشه فحاصره في قصر عين ماضي خمسة أشهر وفتحه مع منعته واستعصائه على الأتراك طيلة حكمهم للجزائر.

نظم الأمير جيشه وفق الجيوش الحديثة، وقسمه إلى مشاة وفرسان ومدفعية واستعان بضباط من التونسيين والفارين من الجيش الفرنسي والمجندين عند الأتراك، كما اختص بنظام في اللباس والمأكل والرواتب والتعليم والترقية، وأعد معامل السلاح ومخازن الذخيرة والمؤن، ورمم القلاع ولم يغفل عن شيء مما يلزم لتأسيس الحكومات.

وفي ١١ رمضان ١٢٥٥هـ/١٦ كانون الأول ١٨٣٩م نادى الأمير بالجهاد، وقامت الحرب أربع سنين بعدها ثبت فيها الأمير الثبات الذي خلد له الذكر. وكان سبب استئناف القتال هو أن الفرنسيين نقضوا المعاهدة متعللين بتفسيرات لها.

ثم تفوق عليه عدوه وسقطت أكثر حصونه، واستولى على أكثر مدنه، وفرّ معظم أنصاره، فانحاز إلى المغرب ساعياً في إقناع سلطانه ليدخل الحرب ضد الفرنسيين، فأجاب وكانت موقعة إيسلي في ١٢ آب ١٨٤٤ م، إلا أن الأعداء تفوقوا عليهم، وضربوا طنجة ومغادور بالمدافع من البوارج الحربية، وضيقت فرنسا على المغرب من البر والبحر، فاضطر السلطان مولاي عبد الرحمن إلى عقد صلح معها في أيلول ١٨٤٤ م بشروط أملتها عليه كان أولها: عدم تمكين الأمير عبد القادر من اجتياز حدود الجزائر، فبقي في المغرب نحواً من سنتين، ينتظر ثغرة تمكنه من الدخول على العدو.

ولما كانت سنة ١٢٦٣ هـ/ ١٨٤٦ م قامت ثورة في الجزائر، فانقض عليها ثانية وبلغ بلاد البربر المسماة عند الفرنسيين (كابيلي) واستعاد مركزه كما كان، فما لبث الفرنسيون أن أحاطوا به من كل جانب فاضطر إلى الانسحاب ثانية إلى المغرب، فطالبت به فرنسا سلطانها وفق المعاهدة التي بينهما فاضطر أن يعبىء حملة ضد الأمير الذي رأى نفسه محاصراً بين قوتين لا طاقة له بهما، فسلّم نفسه للفرنسيين في شهر المحرم ١٢٦٤ هـ/ كانون الأول ١٨٤٧ م بعد مشاورة أصحابه.

ولما قرر التسليم أرسل إلى الجنرال لامُورسيير رئيس الجيوش الفرنسية رسولاً من حاشيته ليخبره باستسلامه، فلما وصل إلى الجنرال اهتز سروراً وبادر إلى ورقة مهرها بختمه على بياض، وأرسلها مع الرسول ليشترط فيها الأمير ما يريد وبعث معه سيفه.

اشترط الأمير سلامته وسلامة أسرته ووزرائه وضباطه، واتفق معهم أن يخرج

بأسرته إلى عكا أو الإسكندرية، وأن يكون كل من بقي في البلاد آمناً على حياته وماله.

وخدع الفرنسيون الأمير، فلما كان في المركب الحربي الذي خصصوه لنقله، وكان معه ما يقرب من ثمانين شخصاً نقلوهم جميعاً إلى طولون ثم إلى أمبواز بعد ستة أشهر حيث بقي فيها سجيناً حتى عام ١٢٦٦ هـ/ ١٨٥٢ م، ونقل إلى بوردو ثم إلى نانت ثم أعيد إلى أمبواز أخيراً.

كان في سجنه عالي الهمة لم تؤثر فيه شدة المشاق التي أحاطت به من كل جانب، وكان الناس يأتون إليه من أنحاء فرنسا وغيرها لزيارته ومنهم أصحاب المناصب والضباط والقواد الذين كانوا يدهشون لسمو همته وتسليمه للقضاء والقدر، وتظاهره بالبشر والفرح مع ما هو فيه.

ثم حضر إليه في أمبواز الإمبراطور نابليون الثالث فبشره بإطلاق سراحه، وأهداه سيفاً مرصعاً، وقال له: «لقد سلمت سيفك إلى فرنسا ولكن فرنسا لا تريدك أن تخرج من بلادها بدون سيف، وها إنني أقدم لك هذا عوضاً عن ذاك». ورتب له في كل عام خمسة آلاف ليرة فرنسية.

ولما خرج من أسره توجه إلى باريس ثم الأستانة حيث قابل السلطان عبد المجيد خان فأكرم وفادته وأنعم عليه بدار فخمة في بروسة، ومدح السلطان بقصيدة طويلة منها:

الحمد لله تعظيماً وإجلالاً	ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا
والشكر لله إذ لم ينصرم أجلي	حتى وصلت بأهل الدين إيصالا
وما أتت نفحات الخير ناسخة	من المكاره أنواعاً وأشكالا
وامتد عمري إلى أن نلت من سندي	خليفة الله أفياء وإظلالا
فالله أكرمني حقاً وأسعدني	وحط عني أوزاراً وأثقالا
قد طال ما طمحت نفسي وما ظفرت	لكن للوصل أوقاتاً وآجالا
اسكن فؤادي وقر الآن في جسدي	فقد وصلت بحزب الله أحبالا
هذا المرام الذي قد كنت تأمله	هذا مناك فطب حالاً بما آلا
وعش هنيئاً فأنت اليوم آمن من	حمام مكة إحراماً وإحلالاً
فأنت تحت لواء المجد مغتبطاً	في حضرة جمعت قطباً وأبدالا

وته دلالاً وهذا العطف من طرب ... وغن وارقص وجر الذيل مختالا
أمنت من كل مكروه ومظلمة ... فبح بما شئت تفصيلاً وإجمالا
هذا مقام التهاني قد حللت به ... فارتع ولا تخش بعد اليوم أنكالا
وأبشر بقرب أمير المؤمنين ومن ... قد أكمل الله فيه الدين إكمالا
عبد المجيد حوى مجداً وعز علا ... وجل قدراً كما قد عم أفضالا
كهف الخلافة كافيها وكافلها ... من لا عهدنا له في القرن أمثالا
يا رب فاشدد على الأعداء وطأته ... واحفظ حماه وزده منك إجلالا
وأظهرن حزبه في كل متجه ... وسددن منه أقوالاً وأفعالا
وابسط يديه على الغبراء قاطبة ... وذللن كل من في الأرض إذلالا
فالمسلمون بأقصى الغرب طامحة ... أبصارهم نحوه يرجون إقبالا
كم خائف يرتجي أمناً بسطوته ... وحائر يرتجي للحَزْن تَسهالا
فرع الخلافة وابن الأكرمين ومن ... شادوا عرا الدين أركاناً وأطلالا
كم أزمة فرجوا كم غمة كشفوا ... كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالا
هم رحمة لبني الإيمان سائرهم ... هم الوقاية أسواء وأهوالا
أنصار دين النبي بعد غيبته ... في نصره بذلوا نفساً وأموالاً
قد خصهم ربهم في خير منقبة ... ما خص صحباً بها قبلاً ولا آلا
كم حاول الصحب والآل الكرام لها ... والله يختص من قد شاء إفضالا
ما زال في كل عصر منهم خلف ... يحمي الشريعة أقوالاً وأفعالا
حتى أتى دهرنا في خير منتخب ... من آل عثمان أملاكاً وأقيالاً
قد كنت مضمر خفض ثم أكسبني ... رفعاً وقد عمني جوداً وإفضالا
وبالإضافة بعد القطع عرفني ... وقد نفى عني تصغيراً وإعلالا
هذا وحق علاه منتهى أملي ... قد حط عني بمحض الفضل أثقالا
لا زال تخدمه نفسي وأمدحه ... مستغرق الدهر أبكاراً وآصالا
أهدي مديحي وحمدي ما حييت له ... أفادني أنعما جلت وإقبالا
جزاه عني إله العرش أفضل ما ... جازى به محسناً يوماً ومفضالا

وأقام في بروسة حتى سنة ١٢٧٠ هـ حين عاد إلى الآستانة ومنها توجه إلى باريس، ثم عاد إلى بروسة، وكان يدرّس فيها بجامع العرب القريب من داره، أقرأ فيه ألفية ابن مالك بشرح المكودي والسنوسية بشرح المصنف وإيساغوجي للفناري والإبريز للدباغ.

وفي سنة ١٢٧١ هـ عزم على سكن دمشق، فارتحل إليها عن طريق بيروت التي وصلها في ٥ ربيع الآخر ١٢٧٢ هـ/ ٢٤ تشرين الثاني ١٨٥٦ م، فاستقبله أهل بيروت برئاسة واليها نامق باشا استقبالاً كريماً واجتمع أمراء تلك المنطقة ومشايخها لملاقاته في جبل لبنان، ورتبوا جموعهم، وأطلقوا البنادق، وساروا عن يمينه وشماله يرتجزون. ونزل ضيفاً على الكولونيل تشارلز تشرشل الإنكليزي[1] ليلة واحدة، ثم سار يقصد دمشق فبلغ الخبر واليها محمود نديم باشا فخرج هو وعزة باشا رئيس العسكرية وغيرهما من أعيان البلدة لملاقاته فوافوه عند قرية دمر.

ودخل دمشق في حفاوة وتكريم، وتقدمت موكبه كتيبة من الجيش تعزف الموسيقا العسكرية، واستقبله أهل دمشق أحسن استقبال. وقيل: إنه لم يدخل دمشق عربي رحب به هذا الترحيب منذ صلاح الدين الأيوبي. ويقول الأمير بهذه المناسبة: «قد فرح بنا أهل البلد وخرجوا كلهم للقيانا الرجال والنساء». وقال أيضاً: «لقد استقبلني الدمشقيون أحسن استقبال وعدوا يوم دخولي مدينتهم كيوم عيد فالرجال والنساء قد تسابقوا أمامي».

وإثر دخوله دمشق توجه مباشرة إلى زيارة جامع الشيخ محيي الدين بن عربي، ثم اتخذ له سكناً بمعرفة والي دمشق، وعرفت داره بدار السيد، وكانت تعرف بدار عزة باشا، وأصلها للقاضي محيي الدين بن الزكي. وبنو الزكي هم الذين نزل بهم الشيخ محيي الدين بن عربي حينما قدم دمشق وتزوج منهم وساكنهم في هذه الدار ثم دفن بمقبرتهم في سفح قاسيون.

وبدأ الزوار يتوافدون إليه وكانت أحاديثه في لقاءاته معهم تدور حول العلم والصلة الروحية بالله تعالى ولم يحدثهم عن نفسه. وأخذ الطريقة المولوية آنذاك عن الشيخ صبري شيخ الطريقة بدمشق.

ولما رحل الأمير من بروسة قاصداً دمشق، أنعم عليه السلطان بألف كيس بدلاً من الدار التي كان أهداه إياها. فاشترى بدمشق دارين واسعتين بينهما دار صغيرة في زقاق النقيب بالعمارة، هدم إحداهن وعفّى آثارها وابتنى في موضعها داراً جميلة، ولما تم بناؤها وأصلحت الداران الأخريان انتقل من الدار التي استأجرتها له الدولة

---

(١) هو الكولونيل تشارلز هنري تشرشل، جاء إلى لبنان سنة ١٢٥٨ هـ/ ١٨٤٢ م على رأس هيئة أطلق عليها اسم البعثة البريطانية في سورية. واشترى قرية بحوارة وهي بين عاليه وبحمدون وبنى فيها بيتاً. وهو ينتسب إلى أسرة تشرشل الإنكليزية المشهورة. توفي ببيروت (التصوف والأمير عبد القادر ١٩).

العثمانية إليهن وذلك سنة ١٢٧٤ هـ وهنأه بسكناه الجديد الشعراء منهم حسن الدجانـي وأمين الجندي وغيرهما.

ثم اشترى بدمشق سبع دور أخرى جعل إحداهن منزلاً لأضيافه، وعدة دور في محلة العمارة البرانية جعل بعضها حديقة مقابلة للدور، وكان بردى يمر بين الدور والحديقة.

واشترى مزرعة بدير بحدل بالغوطة وعمر بها بيتاً، وأرضاً في أشرفية صحنايا، وأرضاً في قرية قرحتا بطرف الغوطة، ومزرعة بلاس، وطاحونة الإحدى عشرية، وخان الصعب بالعمارة، وأرضاً بوادي دمر، وبنـى فيه قصراً لمصيفه. ولما تم بناؤه صنع وكيرة ودعـا إليهـا العلماء والأعيان وقرؤوا بعدها شيئاً من صحيح البخاري للتبرك، وهنأه الشعراء؛ بالقصر في قصائدهم ومنهم الشاعر عبد الغنـي الرافعي الطرابلسي.

وفي سنة ١٢٧٣ هـ توجه إلى بيت المقدس والخليل للزيارة فذهب من طريق صفد ورجع من طريق حوران. ومدحه الشاعر حسن الدجانـي حين توجه إلى يافا إجابة لطلب مفتيها بقصيدة مطلعها:

عهدنا بغرب مطلع البـدر مشرقـاً	وإنـا نراه الآن قـد لاح مشـرقـا
وللغرب أصل الفضل إذ هو مطلع	وإن يك بدر التم في الشرق أشرقا

وأرخ في البيت الأخير تلك الزيارة:

وأضحى ليمن بـالقـدوم مؤرخـاً	إلى المسجد الأقصى سرى يطلب التقى

وفي شهر رمضان من السنة نفسها قرأ (صحيح البخاري) في مدرسة دار الحديث الأشرفية، وكتاب (الإتقان) وكتاب (الإبريز) في المدرسة الجمقمقية.

ثم في شهر رمضان من سنة ١٢٧٥ هـ اعتكف في الجامع الأموي، وقرأ كتاب (الشفا) والصحيحين في مشهد سيدنا الحسين رضي الله عنه.

الأمير وحادثة الستين ١٢٧٦ هـ/ ١٨٦٠ م:

لم تكد الأنباء تتوارد عن قرب وقوع هذه الفتنة حتى جمع الأمير العلماء والوجهاء والأعيان من أهالي دمشق وجماعة المهاجرين المغاربة وخاطبهم قائلاً: «إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجلّ وأقدس من أن تكون خنجر جهالة أو معول طيش أو صرخات نذالة تدوي بها أفواه الحثالة من القوم. أحذركم أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيباً، أو أن يكون له إلى نفوسكم سبيلاً».

ومع تحذير الأمير انطلقت شرارة الفتنة بدمشق يوم الإثنين ٢٠ ذي الحجة ١٢٧٦ هـ/ ٩ تموز ١٨٦٠ م وبقي الأمير أربعة عشر يوماً متوالية لم يفتر فيها لحظة عن نصرة المظلومين، وإنقاذهم من القتل، وأشرف على تطبيب الجرحى، وقام على تعزية الثكالى والأرامل واليتامى. وكان يقضي أكثر الليالي ساهراً وبندقيته في يده حرصاً على من في حماه، فإذا غلب عليه النعاس أسند رأسه إلى فوهتها قليلاً وغفا.

وشاركه في موقفه وأعماله في صد الفتنة كثير من أعيان دمشق مثل الشيخ محمود حمزة مفتي دمشق، وآل العابد، وآل المهايني، وغيرهم.

وبلغ عدد الذين أنقذهم الأمير من القتل والعذاب ممن التجؤوا إلى داره نحواً من خمسة عشر ألف شخص من القناصل وأعيان النصارى والرهبان والراهبات. ولما ضاقت بهم داره بعث بقسم منهم إلى قلعة المدينة. كما احتمى بحي السويقة وبخان المغاربة نصارى الميدان، وكان نتيجة ذلك مقتل عدد من المغاربة هناك كان بينهم فضلاء رافقوا الأمير في جهاده وهاجروا معه من الجزائر.

وفي اليوم الثالث من الفتنة تجمع الغوغاء عند باب الحديد في حي العمارة بغية اقتحام بيت الأمير فخرج إليهم، ولما التقى بهم انصرفوا قاصدين بيوت أعيان المسلمين الذين شاركوا الأمير في حماية النصارى للفتك بمن احتمى بها، فأرسل هؤلاء الأعيان إلى الأمير يطلبون النجدة، فبعث إلى كل منهم بجماعة من رجاله.

وطلب منه جماعة من النصارى أن يؤمن لهم طريق الوصول إلى بيروت ففعل وأبلغهم مأمنهم.

ولم يزل الأمير يعاني من هذه الفتنة إلى أن حضر إلى دمشق فؤاد باشا وزير الخارجية العثماني، وأجرى فيها الأحكام العرفية، فقبض على زمام الأمور، وسجن آلافاً من الناس، وعيّن مجالس خاصة للمحاكمات فقتل من ثبت عليه القتل أو إثارة الفتنة، ونفى جماعة من الأعيان، ثم عقد مجلساً عسكرياً للنظر في أمر الوالي أحمد باشا وجماعة من رؤساء الجند، وأقر الأمن.

وأرسلت فرنسا إلى بيروت إبان الفتنة عشرة آلاف جندي بقيادة الجنرال بوفور وبعثت بقية الدول مراكب حربية ومعتمدين لمراقبة ما سيفعله وزير الخارجية فؤاد باشا. وفي أثناء ذلك حصل خلاف بين هذا الوزير المذكور والجنرال الفرنسي، فبعث الجنرال رسولاً إلى الأمير عبد القادر يخبره بأنه قرر ضرب دمشق من جبال الصالحية ونصح له أن يخرج منها بأهله، فاغتم الأمير واجتمع به في قب الياس وأظهر له سوء

العاقبة من ضرب المدينة، فأصر على موقفه، فهدده الأمير حتى عدل عن فكرته وسلّم الله دمشق.

وكتب الأمير بعد الفتنة معبراً عن سبب موقفه النبيل الذي فسره الناس تفسيرات مختلفة يخاطب ملكة بريطانية: «إنني لم أفعل إلا ما توجبه علي فرائض الدين ولوازم الإنسانية».

منحته الدول الأوروبية الأوسمة الفخرية وكلها من المرتبة الأولى، فنال وسام الجوقة الفرنسي، ووسام صليب النسر الأبيض الروسي، ووسام صليب النسر الأسود البروسي، ووسام صليب المخلّص اليوناني. وأهدت إليه ملكة بريطانية بندقية مرصعة بالذهب.

ومدحه الخطباء والشعراء، فقال الشاعر أمين الجندي:

إليك، انتهى المجد الرفيع المؤثّل ... وعنك؛ أحاديث المكارم، تنقل
تفرّدت في الآفاق، بالسؤدد، الذي ... على فضله، بين الأنام؛ المعوّل
سموتَ سموّ البدر، في برج عزّه ... ونورك، للأكوان ـ مولاي ـ يشمل
ألست ابن سلطان الرجال!! ومَن له ... على كلّ قطب، في الوجود، التفضّل
أما أنتَ من آل النبيّ، كدرّةٍ ... تجلّ، فلا يجري عليها التمثّل؟؟
أما أنت كشاف الكروب، عن الورى؟! ... ومنجدهم؛ إن حلّ خطب، ومعضل؟!
حماك؛ غدا للناس آية كعبةٍ ... فما عنه للعافين ـ يوماً ـ تنقّل
وموردك السامي؛ صفا عن كدورةٍ ... فمنه، ذوو الآمال؛ بالبشر، تنهل
ظهرت بأوصاف الكمال. وإنما ... لديك؛ انطوى ما بعضه اللبّ؛ يذهل
ومَن ظنّ يستوفي المديحَ أو الثنا ... عليك، إذن؛ عند التأمّل، يخجل!!
ولا عجباً!! فالله جلّ جلاله ... عليم. يرى؛ حيث الرسالة، يجعل
ملكت زمام المجد؛ فانقاد مسرعاً ... إليك. وقوم حاولوه؛ فحوّلوا
ملأت قلوب الناس: لطفاً وهيبةً ... وكل إذن؛ في بابه، جاءَ يجمل
جمعت الندى، للحلم. والبأسَ، للتّقى ... فأنت لمن وافاك؛ ركن، ومنهل
تهاب ليوثُ الغاب، في أجماتها ... سطاك. ويرجو البرّ منك؛ المؤمّل
وقفتَ على سرّ الحقيقة؛ فانجلت ... لديك، عروس الإنس، بالعزّ، تخجل
وأبرزت، من كنز العلوم، دقائقاً ... يعزّ ـ إليها ـ عن سواك، التوصّل
حفظت بلاداً، كنتَ فيها مملّكاً ... بعزمك، دهراً، فيه ذو الحزم؛ يحلل
وحاربت قوماً، أهلَ بأسٍ وشدّةٍ ... لهم بين شجعان الخليقة؛ منزل

وكنت عليهم ظاهراً، في مواقفٍ   بها؛ تقف الأفكار، عجزاً، وتخبل
أقرَّ بذا خصم، هشمت ذراعه   وهذا؛ هو الفضل، الذي ليس يجهل
وفي الشام، لما أن بغى الناس، واعتدى   على بعضهم بعضٌ، بما ليس تقبل
نهضتَ لإخماد الفسادِ، بهمّةٍ   تزيل الرؤوس. والأسود تجندل
حقنت دماءً؛ حرّم الشرع سفكها   وصنت، من الأعراض، ما لا يحلّل
بذلت، من الأموال؛ وفراً. بمثله؛   يضنُّ سخيُّ الطبع، والمتموّل
صنيعك هذا؛ ليس يقدر قدره   ولا أحدٌ ـ حقاً ـ له يتوصّل
قصدت به مرضاة ربّك، مخلصاً   وما خاب عبد، في رضا الله؛ يعمل
ملوك الورى ـ طراً ـ حبتك علائماً   على شرفٍ، في حوزه، أنت أوّل
وصيتك؛ عمّ الخافقين. فلا يُرى   نكيرٌ له، في الكون. أو متأوّل
كفى أهل هذا العصر، عزّاً ورفعة   وجودك فيهم!! ما لذلك معدل
وحقّ لي التشريف، إذ كنت سيّدي!!   ومن أين لي ـ لولاك رضاك ـ التوصّل
وجدّك، في سلمان، قال مقالةً   فقل، أنت منّي، بالقبول مجمّل
لأرفل في قومي بثوبي، كرامةً   وعزاً. وضدي، بالمذلّة يرفل
أقِلْ عثراتي. واتّخذني لمدحكم   هزاراً، عليه المدح في الغير، ينقل
فما كل من ألفى الدراري، يصوغها   عقوداً. ولا كلُّ الأقاويل، تُقبل
وإني ـ وإن قصّرتُ ـ فالعذر واضحٌ   وما زلت، عفواً منك ـ مولاي ـ أسأل
فلا زلت ملحوظاً، بعين رعايةٍ   من الله، ما سار الحجيج يهلّل
وما بسط الداعي الأكفَّ لربه   وما قام، في جنح الدجى، متوسّل
وما أشرقت شمسٌ. وما هبّت الصبا   وما خصَّ، بالتسليم، في الناس، مرسل

وقال الشاعر سليمان الصولة:

شقيقة الروح!! ما أجرى الدموع دماً   إلا فراقك. دون الآل والندما
ولا أطار منامي، عن مواطنه   غير الصدود، الذي سرّت به الخصما
وساق بينُك لي؛ روعاً، نفى ورعاً   كنت الصؤول به، طفلاً ومحتلما
سقمان؛ لم أدرِ تعذيبي بأيّهما: سقم اصطباريَ، أم أجفانك السقما
حكمت لي بالهوى. والجور عادته   أأشتكي جوره؟ أم جور مَن حكما؟!
الله بي فقد أصبحت في وجلٍ   لو حلّ أيسره بالزهر؛ ما ابتسما
هيهات!! لا صبرَ، بعد الهجر، يسعفني   وبعد شهد اللما؛ صبر المشوق، لما؟!
إن كنتِ ساليةً عهدي؟ فقد شمتت   بنا الوشاة. وأما إن وصلت؛ فما!!

أمّا أنا؛ فكما تدرين، مكتئبٌ ... لم أسل منك رضاباً، قد حلا، وفما
رضيت بالشوق قوتاً. والغرام ردا ... والحبَّ ديناً. وسلطان الهوى حَكَما
إن كان بيتك ضيقاً؛ فاللقا فرج ... إذا تولاه عبد القادر؛ اقتحما
حامي الشآم، وقد دارت دوائرها ... وقامت العرب فيها، تقتل العجما
وكاشف الضرّ عنها؛ بعدما عثرت ... أيّ العثار. وحاكت أسدها الغنما
الألمعيّ، الأبيّ، العبقريّ. أبو الأ ... شبال، نخبة باقي السادة العظما
السيّد، السند، الفرد، الذي انقسمت ... به العدا. وعلاه الفرد؛ ما انقسما
وجاءه من ملوك الأرض، كلُّ ثنا ... يزري شذاه؛ سحيق المسك منتسما
وأنجم من نياشين مكرَّمة ... يشف عنها شعاع الماس مبتسما
تسمو الملوك بها قدراً. فتحملها ... يوم المفاخر، حتى تدرك العظما
يا مَن تخوَّف دهراً، عاث أرذله ... يمّم حماه؛ تجد ممّا تخاف، حمى
هو الأمير، الذي فلَّت صوارمُه ... عزائم الدهر؛ لمَّا جار واحتدما
فذا الزمان، وحيد العصر، خيِّره ... ثبت الجنان، طويل الباع؛ إن هجما
المشبع القوم أطياراً، إذا التمسوا ... والمشبع الطير أقواماً؛ إذا انتقما
درّ الغمامة. إلا أن صيِّبه ... يوم السماحة؛ درٌّ يفخر الديما
لو لم يكن أوحدَ الأوحاد؛ ما اجتمعت ... على مدائحه: البادون والقدما
الله!! يا ابن المعالي، بي!! فقد نهبت ... حوادث الدهر منّي، ما جمعت وما
وقلَّ صبري. وما صبري؟ وقد بلغ السيل الزبى. وتناهى الأمرُ بي عظما؟!
كانت جوائز شعري، عندكم؛ ذهباً ... فامنن عليّ بها - يا سيدي - كلما
فاردد، بجاهك، كيد الحاسدين على ... نحورهم. وعلى مدّاحك النعما

وقال الشاعر إبراهيم الأحدب نائب المحكمة الشرعية ببيروت:

قلب، بنار الأسى والوجد؛ حيران ... لجيرةٍ، من حمى جيرون، قد بانوا
بانوا؛ فبانت مسرّاتي بهم، أسفاً ... فلا انثني بعدهم، في روضةٍ، بان
عربٌ بإحسانهم. قد أعربوا كلفي ... غداة تطربني، بالوصل، ألحان
بذلت روحي؛ لأدنو من منازلهم ... إن المعالي، لها الأرواح أثمان
وقد ألفت بهم، خلع العذار. ولم ... يقبل عذاري. فأمسى وهو شيبان
يا حبذا!! عهد نعمان الأراك بهم!! ... أيّام، أنعم لي بالقرب؛ نعمان
ريمٌ؛ أروم التسلّي عن هواه. وهل ... يسلو عن الماء، بالنيران، ظمآن
لا سالمت - بعده - آرام ذي سلمٍ ... ولا غزتني، بالأحداق، غزلان

بلؤلؤ الثغر، منه؛ كنت ذا فرحٍ … فالآن؛ دمعي، بالياقوت، مرجان
هل تنطفي نار أحشائي بزورته؟ … وتستكنّ، من الأشواق، أشجان؟!
كما بهمّة عبد القادر، انطفأت … في الشام، مِن حادث الأيام، نيران
شمسٌ، مِن الغرب، وافتنا. فكان لها … في الشرق، نورٌ، به الآفاق تزدان
سرٌّ مِن الله. قد أحيا الأنام به … إن كان يبدو، لسرّ الله؛ إعلان
حلّت أياديه، جيد الكون، مِن عطلٍ … وما تعقّده، في الدين، إيمان
آثاره؛ شامةٌ في الشام قد نفحت … طيباً؛ به ارتاح نسرينٌ، وريحان
ذو طلعةٍ، فوق نجم المشتري، شرفاً … وهمّة؛ دونها، في الأفق، كيوان
إلى النبيّ؛ غدا يبدي لنا نسباً … في وجهه؛ شاهدٌ منه، وبرهان
يا مرتجي الغيث!! يمّم فيض أنمله … فتلك، للمرتجي جدواه؛ خلجان
يدنيه، للمرتجي، لطف الجناب. كما … يعلو به، فوق هام النجم؛ سلطان
وفي العلوم، التي ساد الأنام بها … لها أياديه، بالتحرير، إتقان
يا مَن!! على البدر، أربى نورُ طلعته … والنجم، فيما حوت علياه؛ خيران
مِن بعد بعدُك؛ شمس الغرب قد غربت … وعطّلت، منه، أوطار وأوطان
والشرق؛ أشرق فيه، من سناك لنا … بدرٌ منيرٌ، به للحقّ، تبيان
هل تنكر الشام فضلاً، قد خصصت به … غداة كلّ كسيف البال، ولهان
إذ يوقظ الشرّ قومٌ، ساء جهلهم. … أعمالهم، من منار الحقّ؛ طغيان
بذمّة المصطفى المختار؛ قد غدروا … وإنّ ذلك للإحسان، كفران
شككت: في أنهم ناس، بما فعلوا!! … إذ ليس يفعل هذا الفعل؛ إنسان!!
علمتَ: عقبى الذي أبداه جهلهم … وإنّ ذلك، في الدارين؛ خسران
فقمتَ تمنع ما أبدوه، مجتهداً. … ما فوق ذلك ـ يا مولاي!! ـ إمكان
ورحت، تظهر في حجب الدما؛ شيماً … ما حازها قبلُ قحطانٌ وعدنان
كما حميت العذارى، بالظبا، كرماً … مطهّر النفس. ما استغواك شيطان
إذ قد نهى المصطفى، عن خفر ذمّته … وأن يكون لوالي الأمر؛ عصيان
ماذا عليك؛ وقد راعيت سنّته!! … إنِ راح ينكر نشرَ الورد، جُعلان
هذا هو الشرف المحض، الذي اشتهرت … له مآثر، قد أمسى لها شان
على السماع، بما قد شاع عنك؛ غدت … مشوقةً، قبل رؤيا العين، آذان
أمسى لي الشعر سهلاً، حين قام به … بيدي مآثرك الحسناء؛ إحسان
فاستجلها غادةً، رقّت محاسنها … جمالها، عن سوى علياك؛ منصان
على ابن سهل، معاني لفظها؛ صعبت … كما ابن هاني، بما أبدته؛ منهان

مع أنني في زمانٍ، لا يقام به للشعر سعرٌ؛ وإن زانته أوزان
لكن جدّك؛ قد سنّ القبول له أيّام أحسن، فيما قال، حسّان
وأنت خير امرىءٍ، يقفو مآثره لا زلتَ بدراً، به العلياءُ؛ تزدان

وفي سنة ١٢٧٧ هـ توجه لزيارة حمص وحماة ونزل في حماة بني الكيلاني وأعجبه هناك النواعير ووصفها بقوله:

وناعورة ناشدتها عن حنينها حنين الحوار والدموع تسيل
فقالت وأبدت عذرها بمقالها وللصدق آيات عليه دليل
ألست تراني ألقم الثدي لحظةً وأدفع عنه والبلاء طويل!
وحالي لحال العشق بات محالفاً يدور بدار الحب وهو ذليل
يطأطىء حزناً رأسه بتذلل ويرفع أخرى والعويل عويل

وكان الأمير على رغبة دائمة في التوجه لأداء الحج وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن يمنعه منه إلا القيام على خدمة والدته المسنّة السيدة زهراء بنت محمد بن دوحة الحسني التي كان يرعاها بنفسه ويعنى بشؤونها ويتمتع بمشاهدتها ومجالستها. فلما توفيت آخر سنة ١٢٧٨ هـ عن ثمانين عاماً غادر دمشق في أول رجب من السنة التالية متوجهاً إلى الديار المقدسة عن طريق مصر، مصطحباً معه الشيخ سليم حمزة، والشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي. وخلال اثني عشر شهراً قضاها في مكة لم يغادر فيها حجرته إلا للذهاب إلى الحرم كان لا ينام في اليوم إلا أربع ساعات ولا يأكل فيه إلا مرة واحدة.

وفي مكة أخذ الطريقة الشاذلية عن الشيخ محمد الفاسي وحصل له فيها فتح كبير أشار إليه في قصيدته الرائية يمدح فيها شيخه المذكور وهي (١):

أمسعود!! جاءَ: السعدُ، والخيرُ، واليسرُ وولّت جيوشُ النحس. ليس لها ذكرُ
ليالي: صدودٍ، وانقطاع، وجفوةٍ وهجران ساداتٍ، ولا ذكرَ الهجر
فأيامها، أضحت: قتاماً، ودجنةً لياليها؛ لا نجم يضيء، ولا بدر
فراشي فيها؛ حشوه الهمّ والضنى فلا التذّ لي جنب ولا التذّ لي ظهر
ليالي أنادي - والفؤاد متيّم ونار الجوى؛ تشوي. لما قد حوى الصدر
أمولاي!! طال الهجر. وانقطع الصبر أمولاي!! هذا الليل؛ هل بعده فجر؟!

(١) في المكتبة الظاهرية نسخة من هذه القصيدة محفوظة برقم ٢٤٥ في ورقتين.

أغث ـ يا مغيث المستغيثين ـ والهاً   ألمَّ به، مِن بعد أحبابه، الضرّ
أسائل كلَّ الخلق. هل من مخبّر   يحدِّثني عنكم. فينعشني الخبر؟!
إلى أن دعتني هِمَّة الشيخ، من مدى   بعيدٍ. ألا فادنُ!! فعندي لك الذخر!!
فشمَّرت، عن ذيلي، الإزار. وطار بي   جناح اشتياقٍ، ليس يخشى له كسر
وما بعدت عن ذا المحبّ، تهامة   ولم يثنه سهل ـ هناك ـ ولا وعر
إلى أن أنخنا، بالبطاح. ركابنا   وحطَّ بها رحلي. وتمَّ لها البشر
بطاح؛ بها البيت المعظّم، قبلةً   فلا فخر؛ إلاّ فوقه، ذلك الفخر
بطاح؛ بها الصيد الحلال محرَّم   ومَن حلّها؛ حاشا يبقى له وِزر
أتاني مربّي العارفين، بنفسه   ولا عجب!! فالشأن أضحى له أمر
وقال: فإني منذ أعداد حجَّةٍ   لمنتظرٌ لقياك. يا أيها البدر!!
فأنت بنيَّتي، مذ (ألست بربكم)   وذا الوقت ـ حقّاً ـ ضمه اللوح والسطر
وجدّك قد أعطاك، من قدمٍ، لنا   ذخيرتكم فينا. ويا حبذا الذخر!!
فقبّلت مِن أقدامه وبساطه!!   فقال لك البشرى!! بذا قُضيَ الأمر
وألقى على صفري بإكسير سرّه   فقيل له: هذا هو الذهب التبر!!
وأعني به: شيخ الأنام. وشيخ مَن   له عمّة، ذي عذبةٍ، وله الصدر
عياذي، ملاذي، عُمدتي، ثم عُدّتي   وكهفي؛ إذا أبدى نواجذه الدهر
غياثي من أيدي العداة. ومنقذي   منيري، مجيري، عندما غمّني العمر
ومحيي رفاتي؛ بعد أن كنت رمّةً   وأكسبني عمراً. لعمري؛ هو العمر
محمد الفاسي، له مِن محمّد   صفيٌّ الإله، الحالُ، والشيم الغرّ
بفرضٍ وتعصيب؛ غدا إرثه له   هو البدر، بين الأوليا، وهم الزهر
شمائله؛ تغنيك، إن رمت شاهداً   هي الروض. لكن؛ شقّ أكمامه القطر
تضوّع طيباً، كلّ زهرٍ بنشره   فما المسك؟ ما الكافور؟ ما النّدّ؟ ما العطر؟!
وما حاتمٌ، قل لي. وما حلم أحنف؟   وما زهدُ إبراهيم أدهم؟ ما الصبر؟!
صفوح؛ يغضّ الطرف، عن كلّ زلّةٍ   لهيبته؛ ذلّ الغضنفر، والنمر
هشوش، بشوش، يلقى بالرحب، قاصداً   وعن مثل حبّ المزن؛ تلقاه يفترّ
فلا غضبٌ ـ حاشا ـ بأن يستفزّه   ولا حدّةٌ. كلاّ، ولا عنده ضرّ!!
لنا منه صدرٌ؛ ما تكدّره الدّلا   ووجهٌ طليقٌ؛ لا يزايله البشر
ذليلٌ لأهل الفقر. لا عن مهانةٍ   عزيزٌ. ولا تيهٌ لديه، ولا كبر
وما زهرةُ الدنيا، بشيءٍ له ترى؟   وليس لها ـ يوماً ـ بمجلسه نشر؟!
حريصٌ على هدي الخلائق، جاهدٌ   رحيمٌ بهم، برٌّ، خبيرٌ، له القدر

كساه رسول الله؛ ثوبَ خلافةٍ ... له: الحكم، والتصريف، والنهي، والأمر
وقيل له: إن شئت قل: قدمي علا ... على كل ذي فضلٍ، أحاط به العصر
فذلك فضلُ الله؛ يؤتيه مَن يشا ... وليس على ذي الفضل حصرٌ، ولا حجر
وذا - وأبيك - الفخر. لا فخر مَن غدا ... وقد ملك الدنيا، وساعده النصر
وهذا كمالٌ؛ كَلَّ عن وصف كنهه ... فمَن يدَّعي هذا؛ فهذا هو السر
أبو حسنٍ، لو قد رآه؛ أحبَّه ... وقال له: أنت الخليفة. يا بحرا!!
وما كلُّ شهمٍ، يدّعي السبق صادق!! ... إذا سيق للميدان؛ بان له الخسر
وعند تجلّي النقع؛ يظهر مَن علا ... على ظهر جردبلٍ، ومَن تحته حمر
وما كلُّ مَن يعلو الجواد بفارس ... إذا ثار نقعُ الحرب. والجوّ مغبرُّ
فيحمي ذماراً، يومَ لا ذو حفيظة ... وكلّ حماة الحيّ، مِن خوفهم، فرّوا
ونادى ضعيف الحيّ. مَن ذا يغيثني؟! ... أما من غيورٍ؟! خانني الصبر والدهر
وما كلُّ سيفٍ ذو الفقار، بحدّه ... ولا كل كرّار عليّاً؛ إذا كروا
وما كلُّ طيرٍ، طار في الجوّ، فاتكاً ... وما كلُ صيّاح - إذا صرصر -؛ الصقر
وما كلُّ مَن يسمى بشيخٍ، كمثله ... ولا كلُّ مَن يدعى بعمروٍ؛ إذن عمرو
وذا مثلٌ للمدَّعين. ومَن يكن ... على قدمٍ صدقٍ؛ طبيباً له خبر
فلا شيخ؛ إلاّ مَنْ يخلص هالكاً ... غريقاً، ينادي: قد أحاطَ بيَ المكر
ولا تسألنْ مِن ذي المشائخِ، غير مَن ... له خبرةٌ، فاقتْ. وما هوَ مغترٌّ
تصفّح أحوالَ الرِّجالِ مجرِّباً ... وفي كلِّ مصرٍ. بل وقطرٍ؛ له أمر
فأنعمْ بمصر؛ ربَّت الشَّيخَ يافعاً ... وأكرمْ بقطر؛ طارَ منهُ لهُ ذكر
فمكَّة ذي، خيرُ البلادِ، فديتها ... فما طاولتها الشَّمسُ - يوماً - ولا النِّسر
بها كعبتانِ: كعبة؛ طافَ حولها ... حجيجُ الملا. بلْ ذاكَ عندَهم الظُّفر
وكعبةُ حجّاجِ الجنابِ، الذي سما ... وجلّ؛ فلا ركنٌ لديهِ، ولا حجر
وشتّانَ ما بينَ الحجيجينِ عندنا ... فهذا لهُ ملكٌ. وهذا لهُ أجر
عجبتُ لباغي السِّرِ، للجانبِ الذي ... تقدَّسَ سرّاً؛ لا يجدّ لهُ السَّير
ويلقي إليه نفسَهُ، بفنائه ... بصدقٍ؛ تساوى عندهُ السرُّ والجهر
فيلقى مناخَ الجودِ والفضلِ؛ واسعاً ... ويلقى فراتاً؛ طابَ نهلاً فما القطر
ويلقى رياضاً؛ أزهرتْ بمعارفٍ ... فيا حبَّذا المرأى!! ويا حبَّذا الزّهر!!
ويلقى جناناً؛ فوقَ فردوسها العلا ... وما لجنانِ الخلدِ. إن عبّقتْ؛ نشر!!
ويشربُ كأساً صرفةً من مدامةٍ ... فيا حبَّذا كأسٌ!! ويا حبّذا خمرا!!
فلا غولَ فيها. لا، ولا عنها نزفةٌ ... وليسَ بها بردٌ. وليسَ بها حرٌّ!!

ولا هوَ بعدَ المزجِ؛ أصفرُ فاقعٌ ... ولا هوَ قبلَ المزجِ؛ قانٍ ومحمّر
مُعتّقةٌ مِن قَبلِ كسرى، مصونةٌ ... وما ضمَّها دنٌ. وما نالها عصر
ولا شانها زقٌّ. ولا سارَ سائرٌ ... بأحمالها. كلّا؛ ولا نالها نجر
فلو نظرَ الأملاكُ ختمَ إنائها ... تخلّت عنِ الأملاكِ ـ طوعاً ـ ولا قهر
ولو شمَّتِ الأعلامُ، في الدّرسِ، ريحها ... لما طاشَ، عن صوبِ الصّوابِ، لهم فكر
فيا بُعدَهم عنها! ويا بئسَ ما رضوا!! ... فقصدُهُم قصدٌ. وسيرهُم وزر
هيَ العلمُ، كلُّ العلمِ. والمركز، الذي ... بهِ كلُّ علمٍ، كلَّ حينٍ، لهُ دور
فلا عالمٌ؛ إلّا خبيرٌ بشربها ... ولا جاهلٌ؛ إلّا جهولٌ به غرّ
ولا غبنَ في الدُّنيا. ولا من رزيئةٍ ... سوى رجلٍ، عن نيْلِها، حظّهُ نزر
ولا خُسرَ في الدنيا. ولا هوَ خاسرٌ ... سوى والهٍ. والكفُّ من كأسها صفر
إذا زمزمَ الحادي بذكرِ صفاتها ... وصرّحَ ما كنّى. ونادى نأى الصّبرا!!
وقال: اسقني خمراً. وقلْ لي: هيَ الخمرُ ... ولا تسقني سرّاً، إذا أمكنَ الجهر
وصرِّحْ بمنْ تهوى، ودعني مِنَ الكنى ... فلا خيرَ في اللذاتِ؛ مِنْ دونها ستر
ترى ذائقيها: منها؛ هامتْ عقولهمْ ... ونازَلهمْ بسطٌ. وخامرَهمْ سكر
وتاهوا!! فلم يدروا مِنَ التّيهِ؛ مَن همُ!! ... وشمس الضّحى، من تحتِ أقدامهم، عفر
وقالوا: فمن يرجى من الكونِ، غيرنا؟! ... فنحنُ ملوكُ الأرضِ. لا البيضُ والحمرُ
تميدُ بهمْ كأسٌ. بها قد تولّهوا ... فليسَ لهمْ عرفٌ. وليسَ لهم نكرُ
حيارى!! فلا يدرونَ أينَ توجّهوا!! ... فليسَ لهم ذكرٌ!! وليسَ لهم فكر!!
فيطربهم برقٌ، تألّق بالحمى ... ويرقصهم رعدٌ؛ بسلعٍ لهُ زأر
ويسكرُهم طيبُ النّسيم؛ إذا سرى ... تظنُّ بهم سحراً. وليسَ بهم سحر!!
وتبكيهم ورق الحمائم، في الدّجى ... إذا ما بكتْ. مَنْ ليس يدري له وكر
بحزنٍ وتلحينٍ؛ تجاوبتا بما ... تذوبُ لهُ: الأكبادُ والجلمدُ الصّخر
وتسبيهم غزلانُ رامةَ؛ إنْ بدت ... وأحداقها بيضٌ. وقاماتها سمر
وفي شمّها ـ حقّاً ـ بذلنا نفوسنا ... فهانَ علينا كلُّ شيءٍ. له قدر
وملنا عنِ الأوطانِ، والأهلِ جملةً ... فلا قاصرات الطّرف، تثني. ولا القصر!!
ولا عن أصيحاب الذّوائب. مَن غدت ... ملاعبهم منّي؛ التّرائب والنّحر
هجرنا لها الأحقابَ، والصّحب كلّهم ... فما عاقنا زيدٌ. ولا راقنا بكر!!
ولا ردّنا عنها العوادي، ولا العدى ... ولا هالنا قفرٌ. ولا راعنا بحر!!
وفيها حلا لي الذلُّ، من بعد عزّةٍ ... فيا حبّذا هذا!! ولو بدؤه مرُّ!!
وذلك؛ من فضل الإله. ومنّه ... عليّ. فما للفضل عدٌّ، ولا حصر

وقد أنعم الوهّاب ـ فضلاً ـ بشربها … فلله؛ حمـدٌ دائمٌ، ولـه الشُّكـر
فقل لملوك الأرض: أنتم وشأنكم … فقسمتكم ضئزى. وقسمتنا كثر!!
خذ الدُّنيا والأخرى. أباغيهما!! معاً. … وهاتِ لنا كأساً. فهذا؛ لنا وفر
جزى الله عنّا شيخنا؛ خيرَ ما جزى … به هادياً. فالأجرُ منه، هو الأجر
أمولايَ!! إنّي عبد نعمائك، الّتي … بها؛ صار لي كنزٌ. وفارقني الفقر
وصرتُ مليكاً؛ بعدما كنتُ سوقةً … وساعدني سعدٌ. فحصباؤنا درُّ
أمولايَ!! إنّي عبدُ بابك، واقفٌ … لفيضك محتاجٌ. لجدواكَ مضطرُّ
فمرْ: أمرَ مولىً للعبيد. فإنّني … أنا العبدُ، ذاكَ العبدُ، لا الخادم الحرُّ
هنيئاً لنا. يا معشر الصَّحبِ!! إنّنا … لنا حصنٌ أمنٍ؛ ليس يطرقه ذعر
فنحن بضوء الشَّمسِ. والغير في دجىً … وأعينهم عميٌ. وآذانهم وقر
ولا غروَ في هذا!! وقد قالَ ربُّنا: … تراهم عيونٌ ينظرون؛ ولا بصر!!
وغيم السما، مهما سما؛ هانَ أمرُه … فليس يرى؛ إلّا لمن ساعد القدر
ألا فاعملوا ـ شكراً ـ لمن جاد، بالذي … هدانا. ومِن نعمائه؛ عمّنا اليسر
وصلّوا على خير الورى، خير مرسلٍ … وروح هداة الخلق ـ حقّاً ـ وهم ذرّ
عليه صلاة الله: ما قال قائل: … أمسعود!! جاءَ: السعد، والخير، واليسر

ثم خرج من مكة المكرمة في أول رجب ١٢٨٠ هـ، وقصد المدينة المنورة عن طريق جدة، فوصل إليها في ٢٦ رجب، وسكن في المحل الذي كان بيت سيدنا أبي بكر وبابه من المسجد، واختلى فيه شهرين، وبقي في المدينة المنورة أربعة أشهر كاملة حتى ٢٧ ذي القعدة، وكان في أثنائها يكثر من زيارة جبل أحد والشهداء ومسجد قباء.

وبعد أن حضر ركب الشام توجه معه إلى مكة المكرمة فحج من عامه ذاك ثم رجع إلى جدة في ١٤ ذي الحجة حيث ركب الباخرة المصرية التي أقلته إلى الإسكندرية فنزل بها مدة.

وفي الإسكندرية عرض عليه الماسونيون الدخول في جمعيتهم(١). ثم توجه إلى دمشق فوصلها في ١٩ المحرم سنة ١٢٨٢ هـ فاستقبل بحفاوة وهنأه بسلامة الوصول الشيخ محمد الطنطاوي بقصيدة مطلعها:

يا سيداً فاق الورى … بما حباه ذو الجلال

(١) انظر مجلة الثقافة ٢٦٩، ومجلة الحقائق، مج ٢، ج ٢، ص ٢، ٧٨

ثم توجه إلى الآستانة، فخرج من دمشق ٢٧ ذي القعدة ١٢٨١ هـ، وأقام هناك شهرين وزار السلطان عبد العزيز، وتوسط لديه في العفو عن المساجين والمنفيين الذين أدينوا في فتنة الستين فلبى السلطان رجاءه وأصدر إرادته السنية بإطلاق هؤلاء وإعادتهم لبلادهم، ومنحه الوسام العثماني من المرتبة الأولى.

ثم توجه إلى باريس بدعوة من نابليون الثالث وقصدها عن طريق مرسيليا، وكان غرضه تهدئة الخواطر بعد الفتنة، وإزالة آثار تلك الحوادث، ولما وصل إلى مرسيليا وعرف الناس موعد سفره إلى باريس تجمعوا ألوفاً أمام الفندق الذي نزل فيه ينتظرون خروجه، فلما حان وقت رحيله أطل من الشرفة، وطلب من مرافقه أن يعلن للناس عدوله عن السفر لدواع خاصة شاكراً لهم عواطفهم واهتماماتهم.

وبعد انقضاء ساعتين جاءت الأنباء إلى مرسيليا بأن القطار الذي كان الأمير ينوي السفر فيه وقع له حادث تصادم قتل بسببه وجرح الكثيرون، فلم يمض نصف ساعة على انتشار الخبر حتى تجمع الناس ثانية أمام الفندق يهتفون عاش القديس عبدالقادر.

وغداة ذلك اليوم سافر إلى باريس واستقبله أهلها بحفاوة منتشرين على جوانب الطرق. وهناك اجتمع بالإمبراطور والوزراء والأمراء والقادة. وزاد له الإمبراطور في راتبه، فصار ما يتقاضاه في الشهر ٦٠٠ ليرة فرنسية وهو ما يعادل آنئذ ١٢ ألف فرنك.

ثم توجه إلى لندن في ١٠ ربيع الأول فأقام فيها أربعة أيام واحتفل به الوجهاء، وكانت الملكة وولي العهد وقتها في أطراف البلاد.

ثم رجع إلى باريس، فزار قصر فرساي وشاهد صور الحروب الفرنسية بينه وبين فرنسا وهي تصور انتصار خصومه عليه فقال لمدير القصر: لماذا لم تثبتوا صور الحروب التي انهزمت فيها جيوشكم فضحك المدير وسكت. ثم نزل إلى حدائق القصر فصلى الظهر بمن معه، ثم توجه إلى غابة بولونيا وصلّى فيها العصر على مرأى من جموع كثيرة اجتمعت لمشاهدته، وذكر من كان موجوداً بأن الفرنسيين وغيرهم من السياح وقفوا ينظرون إلى صلاته ويمدحونه على إظهار شعائر دينه. وقال بعضهم: إن منظر الأمير واقفاً للصلاة أمام الجميع خاشعاً لله لمن المناظر التي تتحرك لها القلوب وتصرفها إلى جانب الحق. وضربت الحكومة الفرنسية على مكان صلاته سياجاً من حديد احتراماً له.

دعي إلى مصر سنة ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٩ م لحضور حفل افتتاح قناة السويس،

وكان في صحبته الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني، واجتمع هناك بالشخصيات الرسمية العالمـية.

وفي سنة ١٢٨٩ هـ قرأ كتاب (الفتوحات المكية) مرتين بعد أن أرسل إلى قونية الشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ محمد الطيب، لتصحيح نسخته على نسخة مؤلفه الشيخ محيي الدين بن عربي الموجودة هناك.

موقف الأمير من حركة سنة ١٢٩٤ هـ/ ١٨٧٧ م الاستقلالية:

كان الأمير بعد حادثة الستين محط آمال الناس وأمل دعاة الاستقـلال العربـي. فعندما انتصر الروس على الدولة العثمانية عقد زعماء بلاد الشام مؤتمر دمشق السري للنظر في استقلالها عن العثمانيين وقر رأيهم على تنصيب الأمير عبد القادر أميراً عليها، لأنه الشخصية التي تستطيع إقناع الأتراك بحق العرب بالاستقلال، وهو الذي يمكن أن تتفق عليه كلمة الدول الأوروبية ذات المصالح المتصارعة في المنطقة بعد مواقفه المشهورة[1]. خاصة وأنه كان أمير الجزائر وأنه شريف النسب وعالم رفيع القدر تنضوي تحت لوائه مختلف الطوائف، ولكن الأمير رغب ببقاء الارتباط الروحي بين بلاد الشام والخلافة العثمانية، وأن يبقى السلطان العثماني سلطاناً على الشام أيضاً وأن يبايع أهل الشام له (للأمير). ولكن الدولة العثمانية قويت بعد ذلك وتولى السلطان عبد الحميد الثاني، وتقدمت بالأمير السن، فطويت صفحة المؤتمر وجمّد المشروع.

زار طبريا وصفد سنة ١٢٩٩ هـ يصحبه بعض أولاده وخواصه فأقام فيهما أربعين يوماً للاستجمام.

الأمير والتصوف

توغل الأمير في آخر عمره بالتصوف وعلوم القوم، وأظهر من الرقائق والمعارف ما أشار إلى سمو مقامه ورفيع قدره.

وتنقسم حياته الصوفية إلى ثلاث مراحل:

الأولى: هي المرحلة التي سافر فيها إلى دمشق مع والده وأخذ عن علمائها وتلقى الطريقة النقشبندية فيها عن الشيخ خالد النقشبندي، والطريقة القادرية التي تلقاها ببغداد عن الشيخ محمود الكيلاني القادري. كما أسلفنا ذلك كله. وبعد ذلك رجع إلى الجزائر فأنشأ مراكز في القرى وبين القبائل لنشر الطريقة القادرية. وكان

(١) انظر مقدمة كتاب حياة الأمير عبد القادر لشارلز تشرشل، ومجلة الثقافة ٢٧١

هؤلاء هم الذين غذوا حركة الجهاد التي قام بها الأمير بعد ذلك.

الثانية: مرحلة عزلته وخلوته في مدينة أمبواز حين كان سجيناً، وإلى هذا أشار في كتابه المواقف (الموقف ٢١١).

الثالثة: هي المرحلة التي تم له فيها الترقي الصوفي، وصل إليها في مجاورته بمكة المكرمة سنة ١٢٧٩ هـ كما ذكرنا حيث أقبل على العبادة والخلوة، والتقى بالشيخ محمد الفاسي الذي أعطاه الطريقة الشاذلية.

للأمير مؤلفات عديدة منها:

- إجابات الأمير عبد القادر[١] (وهي أسئلة من بعض علماء عصره عن إشكالات بعض عبارات الصوفية كقول الغزالي مثلاً: ليس في الإمكان أبدع مما كان).

- رسالة في الحقائق الغيبية[٢] (وهي شرح البيتين المشهورين التاليين على المشرب الصوفي:

رأت قمر السماء فأذكرتني ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمراً ولكن رأيت بعينها ورأت بعيني

- رسالة في شرح سورة التكوير[٣] (على الطريقة الصوفية).

- المواقف الروحية والفيوضات السبوحية[٤] (وهو أشهر كتبه؛ فسرّ به بعض الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تفسيراً مزجه بالفقه والتاريخ بأسلوب صوفي، وكان يلقي مواقفه في مجالسه الخاصة. ثم اقترح عليه الشيخ عبد الرزاق البيطار أن يدوّن ذلك ويسجله، فكان هذا الكتاب).

---

(١) منها نسخة خطية في الظاهرية بخط مغربي رقمها ١١٤١٩ في ١٥ ورقة.

(٢) منها نسختان خطيتان في الظاهرية برقم ٢٤٥ في ورقتين، ورقم ٨٤٢٠ في ورقتين أيضاً. وطبعت هذه الرسالة في كتاب المواقف ٢/٣١٥-٣١٨

(٣) منها نسخة مخطوطة في الظاهرية برقم ٢٤٥ في ثلاث ورقات نسخت سنة ١٢٩٢ هـ.

(٤) منه ست نسخ مخطوطة في الظاهرية؛ الأولى في ثلاثة مجلدات الأول برقم ٩٢٣٦، والثاني برقم ٩٢٦٤، والثالث برقم ٩٢٦٥، والثانية في ثلاثة مجلدات أيضاً؛ الأول برقم ٩٢٦٦؛ والثاني برقم ٩٢٦٧، والثالث برقم ٩٢٦٨ وتاريخ نسخها ١٣٠٧ هـ، والثالثة في ثلاثة مجلدات كذلك الأول برقم ١٥٢٨، والثاني برقم ١٥٢٩، والثالث برقم ١٥٣٠. وأما النسخة الرابعة فمنها المجلد الأول فقط برقم ٥٣٢٣ بخط محمد سعيد الحلاق وجمال الدين القاسمي، والخامسة منها المجلد الثالث برقم ١١٤٢٤، والسادسة منها المجلد الثالث برقم ٦٩٩٥، وطبع الكتاب مرتين الأولى في القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ، والثانية في دمشق سنة ١٣٩٦ هـ.

- تعليقات على حاشية جده عبد القادر (في علم الكلام).
- الصافنات الجياد (في محاسن الخيل وصفاتها).
- ذكرى العاقل وتنبيه الجاهل (كتاب في الأخلاق والشريعة).
- المقراض الحاد لقطع لسان أهل الباطل والإلحاد.

وله منظومات وأشعار منها:

- القصيدة التي أشرنا إليها في مدح شيخه الفاسي بمكة المكرمة.
- قصيدتان على لسان أهل الله[1].
- ديوان شعر[2] (وفيه قصائد متنوعة المعاني).

ومن شعره يمتدح بالطبيعة الجميلة في دمر:

عج بي فديتك في أباطح دمر	ذات الرياض الزاهرات النضر
ذات المياه الجاريات على الصفا	فكأنها من ماء نهر الكوثر
ذات الجداول كالأراقم جريها	سبحانه من خالق ومصور
ذات النسيم الطيب العطر الذي	يغنيك عن زبد ومسك إذفر
والطير في أدواحها مترنم	برخيم صوت فاق نغمة مزمر
مغنى به النسأك يزكو حالها	ما بين أذكار وبين تفكر
أين الرصافة والسدير وشعب بوّ	ان إذا أنصفتني من دمر

وقال يفتخر:

لنا في كل مكرمة مجال	ومن فوق السماك لنا رجال
ركبنا للمكارم كل هول	وخضنا أبحراً ولها زجال
لنا الفخر العميم بكل عصر	ومصر هل بهذا ما يقال
ومنا لم يزل في كل وقت	رجال للرجال هم الرّجال
لقد شادوا المؤسس من قديم	بهم: ترقى المكارم والخصال
سلوا عني الفرانس تخبرنكم	ويصدق إذ حكت منها المقال
فكم لي فيهم من يوم حرب	به افتخر الزمان ولا يزال

(١) في الظاهرية: نسخة منهما في أربع ورقات برقم ٢٤٥.
(٢) جمعه ابنه الأمير محمد، ومنه نسخة خطية في الظاهرية في ٤٩ ورقة برقم ٤٨٦٣ وفي آخره نبذة في ترجمة الأمير.

وقال يفتخر أيضاً:

تسائلني أم البنين وإنها لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألا فاسألي جنس الفرنسيس تعلمي بأن منايـاهم بسيفي وعسالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي وبي يحتمي جيشي وتمنع أبطالي

كان الأمير رجلاً معتدل القامة، عظيم الهامة، ممتلئ الجسم، أبيض اللون، مشرباً بحمرة، أسود الشعر، كث اللحية، أقنى الأنف، أشهل العينين يخضب بالسواد.

وكان عاكفاً على شهود صلاة الجماعة في أوقاتها يلازم صلاة الفجر في المسجد القريب من داره بحي العمارة (زقاق النقيب) لا يتخلف عن ذلك إلا لمرض.

كثير التهجد والخلوات، كثير الصدقات، يبر العلماء والصالحين والفقراء برواتب شهرية، وينتصب لقضاء حوائج العباد، عاملاً بتقوى الله في السر والعلن، يصوم شهر رمضان على الكعك والزبيب، ويعتزل خلاله الناس كلهم، وكانت له خلوة يتحنث فيها بقصره في دمر.

كان الأمير حليماً زاهداً ورعاً، وله مواقف إنسانية ذكرنا بعضها وخاصة في حادثة الستين. وكان معظماً عند ملوك البلاد الأوروبية، وكانوا يطلبون صورته ويرغبون أن يكتب عليها بخطه فكان يكتب أحياناً هذه الأبيات:

لئن كان هذا الرسم يعطيك ظاهري فليس يريك النظم صورتنا العظمى
فثم وراء الرسم شخص محجب له همة تعلو بأخمصها النجما
وما المرء بالوجه الصبيح افتخاره ولكنه بالفضل والخلق الأسمى
وإن جمعت للمرء هذي وهذه فذاك الذي لا يبتغي بعده نعما

وكان الناس يلجؤون إليه في حل مشكلاتهم وخصوماتهم فيصلح بينهم ويرتضون أحكامه، وكان يعطي من ماله إذا ما تبين له عجز الذي يحكم عليه عن الأداء، وكان يهب الشبان مهوراً للزواج، وقد يتوسط الأهالي لديه للعفو عن المحكومين فما كان يرد الرجاء إذا جاءه من يكفل المحكوم ويضمن توبته، فكان مسموع الكلمة لا يرد له الولاة طلباً، ويتقربون إليه بتنفيذ ما يشير به. واعتاد الفقراء أن يقصدوه لتجهيز موتاهم، وعيّن مخصصات للفقراء تعطى إليهم أيام الجمعة، ومنها الخبز الذي يوزع على مئات الأسر المعدمة طوال شهر رمضان.

أحبه أهل دمشق وعلماؤها وأعيانها وأجمعوا على تقديمه حتى قال له الشيخ عبد الرزاق البيطار يخاطبه يوماً: «نحن أهل دمشق نعدّ أن نعم الله علينا عظيمة وكثيرة في هذه البلدة وقد زادنا جلت عظمته من فضله أن جعل إقامتك فيها فأفادنا من علومك ومعارفك».

وكان بيته في دمشق مركز اجتماع أعيانها لمناقشة المسائل الهامة وموئل العلماء، وكانت له فيه جلسة خاصة مع كبارهم يفسّر فيها من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وأقوال السلف الصالح رضي الله عنهم على طريقته الخاصة التي أعجبت الكثيرين فرجوه أن يسجل آراءه في كتاب فكان كتابه (المواقف).

وكان من أقرب المقربين إليه من العلماء الشيخ محمد الطنطاوي، والشيخ محمد الطيب، والشيخ محمد الخاني، والشيخ عبد الرزاق البيطار، وقال هذا الأخير في كتابه (الحلية): «حضرت عليه مع من حضر كتاب (فتوحات الشيخ الأكبر) و (رسالة عقلة المستوفز له) وكتاب (المواقف) للأمير وهو كتاب كبير في الواردات التي وردت عليه ونسبت إليه، وكنا لا يرد علينا إشكال من آية أو حديث أو غير ذلك إلا وأجاب عنه بأحسن جواب بفتح الملك الوهاب وكان في كل مدة قليلة يدعونا إلى بعض محلاته خارج البلد، فكان يدخل علينا كل سرور ويفرغ علينا كل حبور، وفي كل سنة في أيام الصيف يخرج إلى قصره في أرض دمر، فكان يأمرني بالخروج معه ولا زلت ملازماً له إلى أن توفي».

ومن مواقف الأمير المشهودة موقفه من قضية مدرسة الأشرفية المعروفة بدار الحديث النووية، وملخصها أنّ رجلاً من الأروام يدعى بانكو استولى على دار تابعة للمدرسة المذكورة، ثم امتدت يده إلى الزاوية الغربية من المسجد واقتطعها منه وأعدها لوضع دنان الخمر، فقام عليه الشيخ يوسف المغربي، وتوجه إلى الآستانة وحصل على مرسوم سلطاني بإخلاء الدار منه. وفي الآستانة اجتمع الشيخ يوسف بالأمير وشرح له قضية المدرسة الأشرفية فلما رجع الأمير إلى دمشق وشاهد الأمر كما ذكر له أحضر الرومي واشترى منه ما استولى عليه، ثم أوقف الدار على الشيخ يوسف وذريته وذلك في ٢ جمادى الأولى ١٢٧٢ هـ وأمر بترميم المسجد والمدرسة على نفقته[١] وقرأ فيها يوم افتتاحها صحيح البخاري بعد صلاة الظهر إلى العصر وختمه في آخر يوم من شهر رمضان.

---

(١) انظر تفصيل القصة في ترجمة الشيخ يوسف المغربي (ت ١٢٧٩ هـ).



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك يا علي الإسناد ونصلي ونسلم على أجل سند وعلى آله الأعلام وأصحابه نجوم الإسلام أما بعد فقد أجزت المولى الفاضل المجمل بفرائد الفوائد والفضائل الشيخ محمد الطنطاوي ...

سند الأمير عبد القادر بالحديث النّبوي

ومن الطرائف التي جرت للأمير أنه في سنة ١٢٩٦ هـ شاع في الناس خبر موته وانتشر في البلاد سريعاً، وجاءت البرقيات والرسائل تعزي به فقال حينذاك: «الموت لا بد منه عند نهاية الأجل، والحمد لله الذي أراني وأسمعني ما يقال في جانبي من الخير بعدي. ونظمت برثائه حياً قصائد منها مرثية لمحمد إسحاق الأدهمي الطرابلسي مطلعها:

هذا المصاب الذي قد كنت أخشاه وافى فما حيلتي فيما قضى الله

أصيب الأمير بكليتيه ومثانته ومرض مرض الموت في أواخر شهر جمادى الآخرة عام ١٣٠٠ هـ/ أيار ١٨٨٣ م وكان خلاله يشتغل بالمراقبة والذكر. ولم يظهر ضجراً ولا تأوه قط ولا ترك الصلاة في وقت من الأوقات لكنه عجز في آخر مرضه عن الوضوء فصار يتيمم، وكان في مرضه قليل الكلام.

واستمر تردد الأطباء عليه خمسة وعشرين يوماً إلى أن توفي منتصف ليلة السبت ١٩ رجب ١٣٠٠ هـ/ ٢٤ أيار ١٨٨٣ م في قصره بقرية دمر غرب دمشق عن ٧٦ عاماً.

ونقل صباح اليوم التالي في عربته إلى داره بدمشق، حيث تولى تجهيزه ضيفه الشيخ عبد الرحمن عليش شيخ علماء الأزهر، ثم حمل نعشه على الأكتاف إلى الجامع الأموي، فصلي عليه في مشهد حافل لم يسبق له مثيل.

واجتمعت الآراء على دفنه بجوار الشيخ محيي الدين بن عربي، فاجتمع مجلس إدارة الولاية للمذاكرة في هذا الأمر ووافق عليه بعد ترخيص من الباب العالي. وسارت جنازته على طريق الصالحية حتى بلغت دار الحكومة، وهناك استقبل النعش قناصل الدول بالألبسة الرسمية مع فريق من الجنود العثمانيين والأمراء العسكريين والملكيين، وسار خلف جنازته ثلاثون ألفاً عدا الواقفين بالطرقات حتى شيعوه إلى مثواه الأخير.

رثاه شعراء كثيرون وتكلم في أمره خطباء عديدون. ومما قاله فيه الشيخ الشاعر محمد الهلالي:

سهام قضاء الله ليس لها ردّ وكأس الردى ما من إذاقته بدّ
بلى كل شيء هالك غير وجه من له الحكم حتماً لا شريك ولا ضد
محال إذا جاء المقدر حيلة لمستعصم من أن يلمّ به كد
عناء حياتي كلها بعد سيد به فجع الإسلام والعلم والمجد

وأظلمت الأوطـان حين بجسمـه ... تنـورت الأكفـان وابتهـج . اللحـد
سقى وابل الرضوان أعطر مرقد ... حوى بحر فضل ما لتياره حد
كأن لم يكن برّ، كأن لم يكن تقى ... كأن لم يكن صدق، كأن لم يكن رشد
طوى الكل بعد النشر بعض من الثرى ... فلم يبق إلا الذكر والشكر والحمد
مضى الجود والإحسان والعفة انقضت ... وصاحبها العرفان والحلم والزهد
مضى ابن بني الزهراء حقاً لجده ... فيا حبذا الأبناء والأب والجد
معز اليتامى والأرامل كنزهم ... إذا الضبع الشهباء ذلت بها الأسد
بروحي بروحي آه لو يفتدى بها ... أمير بأمر الله جد به الجد
هنيئاً لجنات النعيم بقرب من ... أرانا جحيم الحزن من بعده البعد
هنيئاً لمحيي الدين قدس سرّه ... بجار حماه اليمن للجار والسعد
مصاب أصاب الدين لو أن بعضه ... على أُحد لاندكّ من هوله أُحد
قيامة رزء لو ترى الناس بالبكا ... محاجرهم جرحى وأعينهم رمد
لهم زحل[1] بالذكر لله والدعا ... وأدمعهم سحب وأهوالهم رعد
سكارى وما هم بالسكارى وإنما ... وفاة ابن محيي الدين حق بها الوعد
سرى نعشه فوق الرقاب وحوله ... ملائكة الرحمن أنوارهم تبدو
لقد جل عن أن يدفنوه بروضة ... هي الروح والريحان والمسك والند
تقي نقي جاور الله في البقا ... وأقبل بالبشرى على القادر العبد
وقور غيور ناسك متواضع ... على أنه المقدام والأسد الورد
على أنه البسام يوم كريهة ... إذا عبست من تحت فرسانها الجرد
فتى من رجال الله كان على العدى ... حساماً صقيلاً لا يفل له حد
فتى كان لا يخشى من الخصم سطوة ... وليث الشرى[2] حاشا يروعه القرد
فتى في سبيل الله كان مجاهداً ... وليس له إلا رضى ربه جهد
همام كميّ كم أزاح ملمة ... بسيفٍ رقابُ المعتدين له غمد
هزبر هصور في الجزائر كم له ... وقائع لا يقوى على حصرها عدٌّ
سراج على سرج الجواد كأنما ... من الرعب والإرهاب يقدمه جند
نعيناه للمحراب والحرب والندى ... فكل علاه الحزن والسهد والوجد
عطاء ولا منّ وعفو ولا حقد ... وجبر ولا كسر وودّ ولا صد

---

(١) كذا في الأصل، ولم يظهر لنا معناها، ولعلّ أصلها: لهم زَجَلات الذكر والزجلات: صوت الناس وضجيجهم.

(٢) الشرى: مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل فيقال: «هو كأسد الشرى».

حسان مزايا بانتقال حليفها ... تعطل جيد المجد وانفصم العقد
لحى الله داراً للزوال نعيمها ... وأولها مهد وآخرها لحد
غرور حياة وهي غراء حية ... بأنيابها سم يمازجه الشهد
فتاة تراها وهي شر عجوزة ... كما الدهر لم يصرم حبائلها الشد
تصيد البرايا واحداً بعد واحد ... فلم ينج منها لا كريم ولا وغد
مجربة تباً لها من خؤونة ... فلا موثق منها يدوم ولا عهد
عروس ولكن المحال حليها ... لها المين مرط والخداع لها بُرد[1]
لعوب كما الصهبا بألباب أهلها ... تروح بهم طوراً وطوراً بهم تغدو
فما نصحت إلا وغشت وهكذا ... قياس قضاياها بنا العكس والطرد
شكونا ونرد[2] الدهر ليس بسامع ... وهل تنفع الشكوى إذا حكم النرد
فليس لنا إلا التوكل والرضى ... بما قد قضاه الواحد الأحد الفرد
فصبراً جميلاً إنها لمصيبة ... يذوب أسىً من حرّها الحجر الصلد
ولكن إذا في نار حزن ثوى الحجا ... خبت ومع التسليم أخمدها البرد
وآل رسول الله أولى من الورى ... بأن يتحلوا بالوقار ويعتدّوا
هم الحسنيون الألى صوت صيتهم ... به ألسن الإحسان ما برحت تشدو
هم الكاظمون الغيظ والصابرون هم ... رياحين زهراء النبي إذا عدّوا
وهم عُدّتي في شدتي وذخيرتي ... بدنياي والأخرى هم القبل والبعد
ولا سيما أنجال من قد مضى ومن ... رحيق شراب الأنس طاب له الورد
مصابيح فضل عظم الله أجرهم ... ولا ساءهم من بعد مَن فَقدوا فَقْد
وأبقاهم الرحمن للناس رحمة ... سحائبها يروى بها الغور والنجد
نعم كلهم نجب كرام ثوابت ... لدى الروع حتى إن أصغرهم طود
وأكبرهم من دونه الدهر همة ... بغيرة ندب أوحد ماله ندّ
محمد السامي سماء مقامه ... على الشمس لا نكر هناك ولا جحد
أمير وجيه الوجه والجاه كوكب ... منير به العلياء تم لها السعد
لإحسانه تصبو العفاة وحسنه ... تحن له ليلى وتشتاقه هند
بديع معان عن أداء بيانها ... لقد كلت الأقلام والألسن اللدّ
كفى بشذاه سيرة وسريرة ... فما الشيخ ما القيصوم والبان والرند

---

(١) المِرْط : كل ثوب غير مخيط، وكساء من صوف وغيره يؤتزر به، والبُرد: ثوب مخطّط، وكساء من الصوف الأسود يلتحف به.
(٢) النرد : لعبة وضعها أحد ملوك الفرس، وتعرفها العامة بلعب الطاولة (فارسية).

وما غايتي بالمدح إلا تشرفي | بأروع من بيت القصيد هو القصد
إليه سرت أسرار والده الذي | بعدن مع الأبرار طاب له الخلد
وسار إلى المأوى بتاريخه وقد | دعاه بجنات البقا رجب الفرد
سنة ١٣٠٠ هـ.

عليه من الرب الرحيم السلام ما | بكت مقلة وابتل من دمعها خد
وما ابن هلال راح ينشد قائلاً | سهام قضاء الله ليس لها رد

وقال الشاعر عمر البربير:

لِمَ اسودت الدنيا ولم يك غاسق | وأظلمت الآفاق حتى المشارق
خليلي رعاك الله قل لي ما الذي | لقد صار في الدنيا فإنك صادق
فهل آن خلي للقيامة وقتها | ونفخ بصور ثم يصعق صاعق
وبعث الورى والحشر ثم وإنه | تقوم لرب العالمين الخلائق
أرى الكون مسودّاً أرى الشمس لم تبن | أرى البدر لم يسفر وما هو شارق
وإن نجوم الأفق غير طوالع | فلم يبد مسبوق ولم يبد سابق
وأين السما غير الظلام فلا يُرى | ولو جد بالتحديق والوثق وامق
أزالت وإلا بالظلام تحجبت | فما شأنها قل لي فصدري ضائق
وما لي أرى الأطواد ليست بحالها | فكم قد هوى طود وكم دك شاهق
ومالي أرى الأطيار خرساً ولم يكن | عن الصدح والتغريد يسكت ناطق

إلى أن قال:

وها لم أزل فيه إلى أن أجابني | وأدمعه من مقلتيه دوافق
بصوت خفي قد يدق سماعه | إجابة باك وهو بالدمع شارق
وقال نعم أودى خليفة مالك | ومالك هذا العصر من لا يسابق
وجيه أولي التدقيق وهو أميرهم | له نشرت فيهم عليه البيارق
هو الشمس عبد القادر السيد الذي | على فضله أهل العلوم تصادقوا

واختار أهله من بين مئات الأبيات والرسائل أربعة أبيات للشيخ عبد المجيد الخاني لتكتب على قبره وهي:

لله أفق صار مشرق دارتي | قمرين هلاّ من ديار المغرب
الشيخ محيي الدين ختم الأوليا | قمر الفتوحات الفريد المشرب
والفرد عبد القادر الحسني الأمير | قمر المواقف ذا الولي ابن النبي

من نال من أعلى رفيق أرخوا أزكى مقامات الشهود الأقرب

وترك الأمير بعده زوجته ابنة عمه أم البنين وعشرة أبناء ذكور وهم الأمراء محمد باشا ومحيي الدين باشا وإبراهيم والهاشمي وأحمد وعبد الله باشا وعلي باشا وعمر وعبد الرزاق وعبد المالك وست بنات وثلاث جوار جركسيات وجارية حبشية.

ومن المصادفات أنّ الأمير ولد في شهر رجب، وبويع بالإمارة في شهر رجب، وسلّم بعد حروبه في شهر رجب، وتوفي في شهر رجب.

وفي سنة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م رغبت حكومة الجزائر وبعد سبع سنوات من استقلالها بنقل رفات الأمير إلى الجزائر فتم ذلك في احتفال رسمي مهيب.

الفهرس

الموضوع	الصفحة